خطبة صلاة الجمعة 24/ 3/ 2023 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(جبر الخواطر في القرآن)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 9-11].

قال المفسرون: تشير الآيات إلى أن جبر الخواطر واستئلاف الخلق من أعظم المقاصد في تمام الدين.

أخرج الإمام الترمذي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول بين السجدتين: «**اللهم اغفر لي، وارحمني، واجبرني، واهدني، وارزقني**».

عنوان خطب رمضان: جبر الخواطر، وعنوان خطبة اليوم:

جبر الخواطر في القرآن

أيها الإخوة:

جبر الخاطر مصطلح يعني العطف على المحتاج، والعون للمصاب، والسعي لإدخال السرور على قلبيهما.

وجَبرَ خاطرَه إذا سلّاه وعزّاه وفرّج الغم عنه، وجبر خاطره إذا طيب قلبه وتدارك ما فات من أمره، ومنه قولهم: "على الله جبر الخواطر".

الحزين محتاج إلى من يجبر خاطره بكلمة حانية، والفقير محتاج إلى من يجبر خاطره بنفقة كافية، والمريض محتاج إلى من يجبر خاطره بدعاء العافية، والمظلوم محتاج إلى من يجبر خاطره بشفاعة وافية، والمسن محتاج إلى من يجبر خاطره بزيارة شافية.

عندما يُقضى الدين عن المدين ينجبر خاطره، وعندما تصل المسافرَ رسالةٌ أو مهاتفةٌ ينجبر خاطره، وعندما تفتح للمهموم باب الأمل وتؤمله بالفرج ينجبر خاطره، وعندما تعين أرملة أو مسكيناً أو يتيماً تُجْبِرُ خواطرهم.

وفي القرآن الكريم دعوة عريضة لجبر خواطر الناس من حولك:

فأول ذلك ما جاء في الآية المفتَتِحة للخطبة: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 9-11] قال العلماء: (كما كنت يتيماً يا محمد فآواك الله، فلا تقهر اليتيم ولا تذله، بل طيب خاطره وأحسن إليه وتلطف به، واصنع به كما تحب أن يُصنع بولدك من بعدك، فنهى الله عن نهر السائل وتقريعه، وأمر بالتلطف معه وتطييب خاطره، حتى لا يذوق ذل النَهْر مع ذل السؤال

يقول الإمام سفيان الثوري: ما رأيت عبادة يتقرب بها العبد إلي ربه مثل جبر خاطر أخيه المسلم).

ولسورة الضحى سبب نزول يدل على جبر الله تعالى خاطر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد أخرج الشيخان عن جندب بن سفيان البجلي رضي الله عنه قال: اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يقم ليلة أو ليلتين، وفي رواية: ليلتين أو ثلاثاً، فجاءته امرأة، فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانُك قد تركك، لم أره قرَبَك منذ ليلتين، أو ثلاث قال: فأنزل الله عز وجل ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: 1-3].

وفي رواية قال: أبطأ جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال المشركون: قد وُدِّعَ محمد، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: 1-3].

فالقرآن الكريم يطيب خاطر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدافع عنه ويرد على المشركين قالتهم.

ويفعل مثل فعل القرآن مَنْ نافح عن عرض أخيه ودفع عنه في موضع في حضوره وغيبته، أخرج الإمام الترمذي عن أبي الدرداء، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة»**.

وأخرج الإمام أبو داود عن جابر بن عبد الله، وأبي طلحة الأنصاري قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنَ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ، إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنَ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ، إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ».

وشبيه بما حوت سورة الضحى من جبر خاطر من انتقصه الناس ما جرى في حادثة الإفك مع السيدة عائشة رضي الله عنها وتكلم المنافقون في حقها، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم من له معرفة بها عنها سأل السيدة زينب بنت جحش فقالت: حاشى سمعي وبصري، ما علمت إلا خيراً، والله ما أكلمها، وإني لمهاجرتها، وما كنت أقول إلا الحق.

وسأل أم أيمن فقالت: حاشى سمعي وبصري أن أكون علمت أو ظننت بها قط إلا خيراً.

وسل جاريتها بريرة فقالت: هي أطيب من طيب الذهب، والله ما أعلم عليها إلا خيراً.

واستشار صلى الله عليه وسلم أصحابه في فراقها فقال أسامة بن زيد: يا رسول الله أهلك، هذا الباطل والكذب، ولا نعلم إلا خيراً.

فالمنافحة عن أخيك والتحدث عنه بخير يجبر خاطره ويطيبه.

ومما نجده في القرآن الكريم من جبر الخواطر قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: 8]: تتحدث الآية عن جلسة توزيع الإرث على المستحقين لتقول: إذا حضر الفقراء من القرابة الذين لا يرثون، واليتامى والمساكين، فاستحبت أن يُقْسَم لهم شيء يكون إحساناً بهم، وجبرًا لكسرهم، وتطييباً لخاطرهم، وتأنيساً لهم من انكسار رؤية الأموال تقسم في غيرهم، وإذا كان مال المتوفى قليلاً فيُعتَذَرُ إليهم بطيب القول، وإن كان عطاءً من القليل ففيه أجر عظيم، فدرهم يسبق مائة ألف.

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: 8] قال سعيد بن جبير: يقال لهم خذوا بورك لكم، وقيل: قولوا مع الرزق وددت أن لو كان أكثر من هذا، وإن لم يصرف إليهم شي فلا أقل من قولٍ جميل ونوعِ اعتذار).

وروي أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قسم ميراث أبيه فلم يترك في الدار أحداً إلا أعطاه.

وإنها لعادةٌ جميلة اعتادها آباؤنا ورجالنا من هذ الآية فكلما وزعوا على أولادهم شيئاً من المال وكان في الحاضرين طفل من غير أبنائهم أعطوه شيئاً يسيراً أو كثيراً جبراً لخاطره، وكلما وزع معلمو القرآن ومعلماتُه الهدايا على الطلاب الحافظين لمقرراتهم حَرَصوا ألا يخرج طالب إلا بهدية ولو يسيرة، جبراً لخاطر الجميع ودفعاً للضغائن بين الطلاب.

ومن لم يُرِد أن يرضخ لغير المستحقين، وزّع هداياه في وقت لا يحضره غيرُهم، وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث حق الجار قولُه: «**وإذا اشتريت فاكهة فأَهْدِ له فإن لم تفعل فأدخلها سراً ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ولا تؤذه بقُتَار قِدْرِك – أي ريحه– إلا أن تغرف له منها**» [الخرائطي في مكارم الأخلاق وابن عدي في الكامل وهو ضعيف].

فقسمتك لمن حضر القسمة وكان من المعوزين جبر لخاطره وتطييب.

ومما نجده في القرآن الكريم من جبر الخواطر ما جاء في قصة سيدنا يوسف مع إخوته، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: 15] فكان هذا الوحي من الله سبحانه وتعالى لتثبيت قلب يوسف عليه السلام ولجبر خاطره؛ لأنه ظلم وأوذي من أخوته والمظلوم يحتاج إلى جبر خاطر، لذلك شرع لنا جبر الخواطر المنكسرة.

ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [القصص: 85] فقد أُخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ظلماً من مكة التي أحب فهي بلده التي ولد فيها ونشأ، فاحتاج في هذا الموقف الصعب وهذا الفراق الأليم إلى شيء من المواساة والصبر، فأنزل الله تعالى له قرآناً مؤكداً بقسم؛ أن الذي فرض عليك القرآن وأرسلك رسولاً وأمرك بتبليغ شرعه سيردك إلى موطنك مكة عزيزاً منتصراً وهذا ما حصل.

فتصبيرك المصاب ومواساتك المكروب وتأميله بالفرج جبر لخاطره وتطييب.

أيها الإخوة:

هذه ثلاثة مواطن في القرآن الكريم فيها جبرٌ للخواطر، ولها في القرآن أمثال وأمثال، من جبر خواطر الضعفاء وجبر خواطر الأيتام وجبر خواطر الأنبياء وجبر خواطر المؤمنين.

واذكروا أن من مشى بين الناس جابراً للخواطر أدركه الله في جوف المخاطر، ومن فرَّج عن أخيه كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، فالجزاء من جنس العمل.

ولئن كان جبر الخواطر محموداً في الأوقات كلها فإنه في رمضان أشد استحباباً؛ لأنه شهر الصوم وشهر البر وشهر الجِد وشهر التعاون فطيبوا بشهركم نفساً وأرضوا به رباً.

أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ، لَقَدْ أَظَلَّكُمْ شَهْرٌ مَا أَظَلَّ الْمُسْلِمِيْنَ شَهْرٌ قَطُّ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْهُ،... إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُعِدُّ فِيْهِ الْقُوَّةَ لِلْعِبَادَةِ، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ لَيُعِدُّ فِيْهِ الغَفَلَات، فَهُوَ غُنْمٌ لِلْمُؤْمِنِ، وَوِزْرٌ عَلَى الْمُنَافِقِ».

والحمد لله رب العالمين